

أكذوبة الجزية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ

.. الظلم أمرٌ يتناقض مع منهج الله تعالى ، لأنَّ منهج الله تعالى نور ، والظلم ظلام ..
والظلام ليس إلا مجرد دليل على عدم وجود النور ..
ويتجلّى الظلم بأبشع صورته حينما يمارسه الظالم تحت مظلة منهج الله تعالى ، ناسباً
ظلمه لله تعالى ومنهجه .. هذا ما نراه في مسائل تكفير الآخرين وقتلهم لأنهم آخرون ،
وفي فرض الجزية (حسب المفهوم التاريخي) عليهم نتيجة عدم اعتناقهم للإسلام ..
وهذا الظلم في تكفير الآخرين وفرض الجزية (حسب المفهوم التاريخي) عليهم ، هو
في الدرجة الأولى إساءة لمنهج الله تعالى ، وافتراء على الله تعالى ، وبعد ذلك هو ظلمٌ
للبيشر واستعبادٌ لهم دون حق ..
سنتناول - بإذن الله تعالى - المفهوم التاريخي للجزية ، لنرى كيف أنَّه افتراءٌ على الله
تعالى ومنهجه ، وأنَّه نتيجة جعل الأهواء والشهوات والأحلام السياسية ديناً يُنسب ظلاماً
إلى منهج الله تعالى .. والآية الكريمة التي يحتجون بها في الجزية بمفهومها التاريخي هي ..

﴿ قَتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩]

.. وسنبداً بتفسير هذه الآية الكريمة بتبيان مفهوم القتل في كتاب الله تعالى ، كون هذه الآية الكريمة تبدأ بكلمة : ﴿ قَتِلُوا ﴾ ..

.. دلالات الجذر اللغوي (ق ، ت ، ل) في كتاب الله تعالى تدور في إطار محاولة القاتل بإخراج المقاتل من ساحة وجوده ، إخراجاً نهائياً لا يعود بعدها إلى هذه الساحة .. فالقتل يحمل - مما يحمل من معنى - مفهوم إخراج المقتول من عالم الدنيا ، بمعنى هو استعمال وسيلة لإهاء حياة إنسان ، بحيث لا يعود إلى حياته الدنيا بعد قتله أبداً ، ولذلك نرى أن القتل يُعطَف على الموت ..

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [آل عمران : ١٥٧ - ١٥٨]

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ ﴾ [الحج : ٥٨]

.. فالقتل يحمل - فيما يحمل من دلالة - معنى الموت بأداة ووسيلة يقوم بها القاتل .. وهذا معلوم ولا خلاف فيه ..
.. ومفهوم القتل في كتاب الله تعالى ، يكون وفق أمرين اثنين :

١- القتل الذي يؤدي للموت ، بمعنى اتخاذ وسيلة لإزهاق النفس وإخراجها من جسدها خروجاً نهائياً لا تعود فيه إلى عالمها ، بمعنى لا تعود لجسدها الدنيوي نهائياً ..

أَكْذُوبَةُ الْجَزِيَّةِ.....المهندس عدنان الرفاعي ٣

﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هُنَآءَ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْ دِينِهِمْ تَطْبَهُرُونَ

عَلَيْهِمْ بِالْآثِمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [البقرة : ٨٥]

﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ

تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء : ٢٩]

٢- القتل الذي يؤدي لخروج الإنسان من الحالة التي هو فيها ، خروجاً نهائياً لحالة أخرى لا يعود فيها إطلاقاً إلى حالته الأولى .. فكلمة ﴿ قَتَلَ ﴾ ليست محصورة بالجهاد بالسيف ، إنما تعني أيضاً الجهاد بالكلمة والحجة والبرهان لإخراج الآخرين من حالة الظلام التي يغرقون فيها إلى حالة النور التي لا يعودون فيها إلى حالة الظلام نهائياً ، وتعني اللعن والطرده من الرحمة ، ولذلك نرى أن كلمة ﴿ قَتَلَ ﴾ تتعلق في كتاب الله تعالى بالله سبحانه وتعالى ..

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ غُزَيْرُ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ

بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِعُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَلَىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

[التوبة : ٣٠]

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّكُمْ خُشْبٌ

مُسْنَدَةٌ تَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو فَاخَذَرَهُمُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَلَىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

[المنافقون : ٤]

.. فلا يمكن لعاقل أن يتخيل العبارة القرآنية ﴿ قَتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ أنها تعني حمل الله تعالى

لسيفٍ يقاتل هؤلاء فيه في معركة حسيّة ، إنما تعني أنه بسبب جحودهم أخرجهم الله

أَكْذُوبَةُ الْجَزِيَّةِ.....المهندس عدنان الرفاعي ٤

تعالى من ساحة الهداية إلى ساحة الضلال ، خروجاً نهائياً لا يعودون بعده إلى ساحة الهداية ، وطردهم من رحمته طرداً نهائياً ، ولعنهم ..

.. إذا كلمة ﴿ قَتَلَ ﴾ ليست محصورة أبداً بجانب القتال الحسي في معركة يحاول فيها

المقاتل أن يجعل الآخرين من الموتى ، فدلالها واسعة ، ونعرف الدلالات التي تحملها في كل نص من خلال السياق القرآني المحيط بها .. مثلاً في الآية الكريمة التالية ..

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ

فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٧٦]

.. نرى أن القتال هنا مسألة مفتوحة ، تبدأ بالدعوة إلى الله تعالى لإخراج الغارقين في سبيل الطاغوت من حالة الظلام إلى حالة النور ليصبحوا على صراط الله تعالى ، وإن اعتدوا على المؤمنين بالسيف ، عندها فقط ، يتوجب قتالهم بالسيف .. وهذا المعنى نراه أيضاً في قوله تعالى ..

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كَتَبِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا

الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [

التوبة : ٣٦]

.. العبارتان القرآنيتان ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾

، لا يمكن حصر القتال بهما بقتال السيف ، فالمشركون كافة ليسوا في حالة قتال بالسيف مع المؤمنين كافة ، دائماً وأبداً ، بينما القتال الدائم بين المؤمنين والمشركين ، هو قتال الفكر والمعتقد ، ونشره بين الناس ، وهذا لا يلغي حالات القتال بالسيف ، ولكن ،

أَكْذُوبَةُ الْجَزِيَّةِ.....المهندس عدنان الرفاعي ٥

القتال بالسيف هو جانب من جوانب المعنى المحمول بكلمتي : [**﴿ وَقَاتِلُوا ﴾** ، **﴿ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾** ،] في هذه الآية الكريمة ..

.. بعد هذا التبيان لمفهوم القتال ، لنعد إلى قوله تعالى :

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩]

.. الكلمة الأولى في هذه الآية الكريمة هي : **﴿ قَاتِلُوا ﴾** .. فما هو القتال المعني ؟ ، وما الهدف منه ؟ كلمة : **﴿ قَاتِلُوا ﴾** في هذه الآية الكريمة ليست محصورة بقتال السيف ، لأنَّ الهدف من هذا القتال هو : **﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾** .. وبالتالي .. بقاء المعني حيًّا ليعطي الجزاء المترتب عليه هو أمرٌ مطلوب .. فمن يأمر الله تعالى بمقاتلته ، عليه جزية لا بدَّ أن يعطيها ، وبالتالي فالهدف ليس قتله ، الهدف من القتال هو أن ينصاع للجزاء المترتب عليه ..

.. وفي هذه الآية الكريمة نرى ورودَ عبارة **﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾** ، دون عبارة **﴿ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾** .. فعبارة **﴿ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾** مُصطلحٌ قرآنيٌّ خاصٌّ بمتبوعي رسالتي موسى وعيسى عليهما السلام .. بينما المصطلحُ القرآنيُّ **﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾** يشملُ أهلَ الكتاب والمسلمين ، وذلك حَسَبَ السياقِ القرآنيِّ المُحيطِ بهذه العبارة .. وفي العباراتِ القرآنيَّةِ التاليةِ دليلٌ على ذلك ..

أَكْذُوبَةُ الْجَزِيَّةِ.....المهندس عدنان الرفاعي ٦

﴿ وَتَسْمَعُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى

كَثِيرًا ﴾ [آل عمران : ١٨٦]

﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ [النساء :

١٣١]

﴿ وَالْحَصْنَةُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ [المائدة : ٥]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا

الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٥٧]

.. فوروذ العبارة القرآنية ﴿ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ خلف العبارة القرآنية ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا

الْكِتَابَ ﴾ ، دليل على أننا من الذين أوتوا الكتاب .. والعبارة القرآنية ﴿ مِنْ قَبْلِكُمْ

﴾ هي للإشارة إلى أهل الكتاب تمييزاً لهم من جملة المعنيين بالعبارة القرآنية ﴿ الَّذِينَ

أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ ، التي تشمّلنا وتشملهم ..

.. إذا قوله تعالى ﴿ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ ليست

خاصةً بأهل الكتاب كما تذهب تفاسيرنا التاريخية .. والعبارة القرآنية .. ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا

الْجَزِيَّةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَغِيرُونَ ﴾ ، تُبين لنا الهدف الذي من أجله يأمرنا الله تعالى

بمقاتلة المعنيين في هذه الآية الكريمة .. وهذا ينفي تماماً مفهوم الجزية بمعنى دفع الأموال بدلاً عن اعتناق الدين ، أي بمعنى الخيار الآخر لاعتناق الإسلام ..

.. فالله تعالى لم يقل .. ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا

يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ

أَكْذُوبَةُ الْجِزْيَةِ.....المهندس عدنان الرفاعي

يُؤْمِنُوا أَوْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)) .. فالجزيةُ حصراً هي هدفُ القتالِ ،

حيث ينتهي القتال حينما ﴿ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ ..

.. وبالتالي يكونُ معنى العبارة القرآنية ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾

﴿ .. هُوَ : حتى ينصاعَ أصحابُ تلكَ الجناياتِ إلى الجزاءِ المُقابلِ لِجِنَايَاتِهِمْ ، وهم أذلاء

منصاعون لما حَرَّمَهُ اللهُ تعالى ورسولُهُ ﷺ ..

.. وفي العطف بين العباراتِ القرآنيةِ المُشيرةِ إلى صفاتِ أصحابِ تلكَ الجناياتِ ..

الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا

يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ بيانٌ إلى أن قتالَ هؤلاء يكون

حينما يتصفون بجميع تلك الصفات ، ومن هذه الصفات ﴿ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ

وَرَسُولُهُ ﴾ .. وهذا يؤكدُ أن المسألةَ مسألةَ جنایاتٍ وحقوقٍ مُستحقَّةٍ ، فأصحابُ

الرسالات الأخرى ليسوا مُلزَمين - عقدياً - باتباع الخصوصيات التي حَرَّمَهَا الرسول ﷺ

على المسلمين ..

.. فالآيةُ الكريمةُ إذاً تعني أصحابَ الجناياتِ الذين لم ينصاعوا لِلأحكامِ التي ترتبتُ

عليهم نتيجةَ جنایاتِهِمْ تلكَ ، وذلك من المسلمين أو من أهلِ الكتابِ داخلِ الدولةِ ،

الذين لَهُمْ ما لها وعليهم ما عليها ..

كيف يأمر اللهُ تعالى بمقاتلة الآخرين لإجبارهم على دخول الدين الإسلامي ، والله

تعالى يقول في كتابه الكريم : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة :

٢٥٦] ؟ .. ويقول جلَّ وعلا : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَرَّمًا فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ

فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] ؟ .. ويقول جلَّ وعلا : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي

أَكْذُوبَةُ الْجِزْيَةِ.....المهندس عدنان الرفاعي

الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿ [يونس : ٩٩]

.. كيف من الممكن لإنسان عاقل يدرك الحد الأدنى من قواعد اللغة العربية ، ويؤمن بهذه الآيات الكريمة ، وعنده روح ، كيف من الممكن له أن يتصور المفهوم التاريخي للجزية بأنه حكم من عند الله تعالى !!!؟ .. كيف !!!؟ ..

.. من هنا نرى أن كلمة ﴿ قَتَلُوا ﴾ في بداية هذه الآية الكريمة تصف بذل الجهد ليس في قتل المعنيين من أجل فرض الإسلام عليهم أو إعطائهم الجزية كبديل لذلك ، أبداً ، إنما تصف بذل الجهد في الإتيان بأصحاب الجنايات لينصاعوا للأحكام المترتبة على جناياتهم التي ارتكبوها ، مهما كان معتقدهم ، ولا فارق في ذلك بين مسلم وغير مسلم وموضوع الجزية كمبرغ يدفعه الآخرون كبديل عن اعتناقهم للإسلام ، هو أكذوبة كبرى ، لُفِّت على منهج الله تعالى ، ومنهج الله تعالى منها براء ..

.. إن أمر الله تعالى للمؤمنين بأن يُقاتلوا في سبيله ، لا يعني أبداً فرض الدين بالقوة .. إنما هو بسبب مُحارِبَةِ الآخِرِينَ لِلْمَنْهَجِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ .. أي بسبب الجنايات التي يرتكبها أولئك الذين يأمرنا الله تعالى بِمُحَارَبَتِهِمْ .. وفي النصِّ القرآنيِّ التالي دليلٌ على ذلك ..

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٣ - ٣٤]

.. فالعبارة القرآنيَّة ﴿ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ ، تشمل كلَّ الموصوفين بهاتين الصفتين معاً ، سواءً كانوا مسلمين ، أو غير مسلمين .. وفي

تكرار كلمة ﴿أو﴾ بين حالات الجزاء في قوله تعالى : ﴿أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ

أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ ، في ذلك بيان في اختلاف

الأحكام التي يستحقها هؤلاء كجزاء على جنائيتهم ، وذلك حسب جنائية كل منهم ...

وبالتالي فنحن أمام جنایات مُتعدّدة ، جزاؤها بدرجاتٍ مختلفة وقوله تعالى .. ﴿إِلَّا

الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدَرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ، يؤكّد لنا

أننا أمام جنایاتٍ غُفرائها يحتاجُ إلى توبة ، وجزاؤها المُبيّن في هذا النصّ القرآنيّ ، لا

يَسْقُطُ إِلَّا بتوبة الجاني قبل أن يُقدَرَ عليه ..

.. لقد حدّد الله تعالى سبيل الدعوة إليه ، بشكلٍ صريح لا يحتمل أيّ تأويل آخر ..

يقول تعالى ..

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ

رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل : ١٢٥]

.. فالحكمة والموعظة الحسنة هما السبيل الوحيد للدعوة إلى الله تعالى ، وكلُّ دعوة

بالإكراه هي خروجٌ فاضح على منهج الله تعالى ، تجعل من الداعي أكثر كفراً ممن يريد

دعوتهم ... ومناسبة ورود العبارتين الأخيرتين في هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ

بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ، في هذا السياق ، هي ألاّ يعتر الداعي

إلى الله تعالى فيحسب من يدعوهم ضالّين ، وأنّه أهدى منهم .. فالضلال والهداية

يعلمهما الله تعالى ، ولا يجوز لإنسانٍ أن يرمي الآخرين بالضلال ، ناسباً لنفسه الهداية ،

بناءً على اعتقاده هو ... ما يتطلّب منه هو الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، تاركاً

تقييم الناس لله تعالى ..

أَكْذُوبَةُ الْجِزْيَةِ.....المهندس عدنان الرفاعي ١٠

.. إنَّ القتال في سبيل الله تعالى هو لمن يقاتلنا ، وليس لفرض الدين على الآخرين وإرغامهم على الجزية ، وكلُّ فرضٍ للعقيدة على الآخرين هو اعتداء ينهى الله تعالى عنه ، وهذا ما يصوِّره لنا قول الله تعالى ..

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٠]

.. ولنقف عند قوله تعالى ..

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى

الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٣]

.. هنا القتال ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ ﴾ ، ليس محصوراً بقتال سفك الدماء ، فالدلالة واسعة ، وقد بيَّنا ذلك بما فيه الكفاية .. والهدف من القتال هو أمران لا ينفكان عن بعضهما بدليل عطفهما على بعضهما بحرف العطف (وَ) : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ .. إذا قتال هؤلاء هو بسبب فتنة يقومون بها ، وهذه الفتنة تجعل من العقد الاجتماعي بين أبناء المجتمع ، يسير بنقيض السلام والتسامح والمحبة التي يأمر الله تعالى بها .. وهذا ما تصوِّره لنا العبارة القرآنية ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ .. فالله تعالى لم يقل : ((ويسود دينُ الله)) ، إنما يقول : ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ .. فالدين هنا هو منهج العقد الاجتماعي للمجتمع على مختلف تنوعاته ، وهذا المنهج عندما يُوجَّه باتجاه الإكراه والظلم وطغيان فئة على فئة ، لا يكون في السبيل الذي يريده الله تعالى ، وتحصل الفتنة بين أبناء المجتمع ، لذلك ، يأمر الله تعالى بمقاتلة مثيري هذه الفتن ..

.. إنَّ العقد الاجتماعي المشترك بين أبناء المجتمع ، بما يشمل من دستور وقوانين للدولة ، يسمِّيه القرآن الكريم بدين هذا المجتمع ، أو دين الدولة ودين حاكمها ..

أكذوبة الجزية.....المهندس عدنان الرفاعي ١١

.. فكلمة ﴿ دِينَ ﴾ هي في النهاية من الجذر اللغوي (د ، ي ، ن) ، والدِّين هو التعامل بالأجل ، فالعطاء يُستردُّ بعد أجل .. وهذا المعنى يتقاطع مع مفهوم الدِّين ، فالدِّين هو العمل على أن يتمَّ الجزاء لاحقاً .. من هنا نُدرك معنى قوله تعالى ..

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَأَلْهَ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ [

الحديد : ١١]

.. إذاً .. الدِّين هو مجموعة القوانين والأحكام التي يُطلب من المتدين بهذا الدين العمل بها ، على أن يأخذ جزاءه لاحقاً ..
.. ودين الله تعالى هو أحكام الله تعالى التي يُطلب من الناس اتِّباعها ... وقوانين أيِّ دولة وأحكامها ودستورها ، هي في النهاية دين هذه الدولة .. وفي النصِّ القرآني التالي أكبر دليل على ذلك ..

﴿ قَبْدًا بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أُخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أُخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٧٦]

فالعبارة ﴿ دِينِ الْمَلِكِ ﴾ تعني نظام دولة الملك ، ودستورها ، والقوانين التي تحكم

هذا النظام ..

.. إذاً .. في قوله تعالى : ﴿ وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ ، نرى أن العبارة القرآنيّة ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ ، تعني : ويكون العقد الاجتماعي بين أبناء المجتمع في السبيل الذي يريده الله تعالى ، ولا تعني أبداً فرض الدِّين على الآخرين بالقوّة ..

فإن الله تعالى لم يقل : ((ويسود دينُ الله)) ، إنما يقول ﴿ وَيَكُونُ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ ، فكلمة ﴿ الدِّينُ ﴾ هنا نراها غير مضافة لله تعالى ولا للرسول ﷺ ..

.. إذا .. القتال الذي يأمر الله تعالى به في هذه الآية الكريمة هو ضد من يفتعل الفتن في المجتمع متجاوزاً القيم النبيلة التي يأمر الله تعالى بها من محبة وسلام وتسامح بين أبناء المجتمع ، ومن يريد فرضَ الدِّينِ على الآخرين بالقوَّة ، إنما يتعدَّى على أمر الله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ؟ .. ويتعدَّى على أمر الله

تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [الكهف :

٢٩] ؟ .. ويتعدَّى على أمر الله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ

جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] .. وبالتالي فهو من

الذين يأمر الله تعالى المجتمع بمقاتلتهم ، لأنه يكذب على الله تعالى ، ويشير الفتن في المجتمع ، ويشيع القتل والخوف والكره بين عباد الله تعالى ..

.. إذا قوله تعالى ..

﴿ وَقَتِلْهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آتَتْهُمُ فِتْنَةٌ فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى

الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٣]

لا يعني ما يذهب إليه الظالميون من فرض الدِّينِ بالقوَّة على الآخرين ، وما نراه أن هذه الآية الكريمة تحمل أمراً من الله تعالى للمجتمع بمقاتلة هؤلاء ، لأنهم يثيرون الفتن بين أبناء المجتمع ، ويتعدون على كلِّ القيم النبيلة التي يريد الله تعالى من تسامح وسلام بين أبناء المجتمع ..

ونهاية الآية الكريمة تؤكد صحّة ما نذهب إليه في تفسيرها ﴿فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا

عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة : ١٩٣] ، فإن عاد هؤلاء عن فتنهم ، وانصاعوا لقيم الحجة

والتسامح والسلام ، ينتهي السبب الذي من أجله يأمر الله تعالى بمقاتلتهم ..

وهذا المعنى نراه أيضاً في قوله تعالى ..

﴿وَقَبِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِذَا أَنْتَهَوْا

فَأِذَا لِلَّهِ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نَعْمَ الْمَوْلَى

وَنَعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال : ٣٩ - ٤٠]

.. كتاب الله تعالى (القرآن الكريم) آياته الكريمة متكاملة متعاضدة في تصوير أحكامه

، فالله تعالى الذي يأمر بعدم الإكراه في الدين ، وبحريّة المعتقد ، وبالحجة والسلام والتسامح

بين أبناء المجتمع على مختلف انتماءاتهم ، لا يمكن أن يأمر بفرض الدّين على الآخرين ،

كما يفترى الظالميون عابدين أصنام التاريخ ..

وهنا نسأله أنفسنا : هؤلاء الذين يفترى على الله تعالى بأكذوبة دفع الجزية كبديل عن

اعتناقهم للإسلام ، والذين يريدون فرض أهوائهم المذهبيّة والطائفيّة على الآخرين باسم

الدّين ، تلك الأهواء التي ينقضها دين الله تعالى جملةً وتفصيلاً .. نسأل أنفسنا : كم

يسيء هؤلاء لمنهج الله تعالى ؟ .. وكم يسيء هؤلاء للأمن السلمي والاجتماعي

للمجتمعات البشريّة ؟ .. وكم من المظلومين خلال التاريخ كانوا ضحيّة هذه الأكاذيب

التي يأمر كتاب الله تعالى بنقيضها ؟ .. نترك الإجابة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو

شاهد ..

.. لا تُوجدُ حربٌ شفافَةٌ نقيّةٌ لا آلام فيها ولا عصبية ، ولا تُوجدُ حربٌ حاملها

المودة والحبّة بين المتحاربين ، فالحرب هي الحرب ، هدفها العلو على الآخر وتدمير ما

تسعى الحرب لتدميره .. وقد تُوجدُ حربٌ مشروعةٌ تهدفُ لرفع الظلم ، وقد تُوجدُ حربٌ هدفها الوصول إلى السلام بين المتحاربين ..

.. أمّا أن يُدفعَ المتحاربان إلى حربٍ لا مصلحةَ بها إلاّ لعدوّهما المشترك ، وأن يُستعملَ الدينُ المشترك بين المتحاربين كوقودٍ لإشعال هذه الحرب ، وأن يُساق ضحايا هذه الحرب في سبيلها كالقطيع باسم الدين والمذاهب والطوائف ، فهذا يعني أنّها حربٌ قدرة ، كلُّ ما فيها قدر .. مُشعلوها أقدار ، والسائرون بما أقدار ، والساکتون عن قول الحق بما أقدار ..

.. هذه الحرب القدرة تتجلّى هذه الأيام فيما نراه من شحن مذهبي وطائفي مقيت بين السنّة والشيعه على امتداد العالم .. فكلُّ جوانب القدرة تتجلّى في هذه الحرب ، وكلُّ عناصر الغباء واللهث خلف سياسة القطيع الأعمى ، تظهر (للأسف) في الكثيرين من الذين باعوا ضمائرهم وطلّقوا عقولهم ، ممّن يحسبون أنفسهم يخوضون بها حرباً مقدّسة ..

.. لقد رأيت بوادر هذه الحرب القدرة في شيوخ الفتنة وفضائيات الفتنة عند متطرّفي السنّة والشيعه على حدّ سواء .. كلُّ طرفٍ ينفخ بالنار في نفوس العوام من طائفته ، ويحرّضهم على الطرف الآخر .. وقد تجلّى ذلك عند متطرّفي الشيعه وعند متطرّفي السنّة ممّن يسمّون أنفسهم بالسلفيين ..

.. ومن يطّلع على حقيقة اعتقاد المتطرّفين عند الطرفين ، يدرك تماماً سبب الصدام بينهما ، فكلا الطرفين وصلا إلى مرحلة عبادة أصنام التاريخ بكلّ ما تحمل الكلمة من معنى ، وهو يحسب نفسه موحداً سائراً على صراط الله تعالى المستقيم ..

.. وكلُّ من الطرفين ، عندما نقول له : أنت تعبد أصنام التاريخ ، يزجر وينكر ذلك ويتهمنا بأبشع التهم ، وذلك لأنّه غارق في مستنقع الذي أقنع نفسه بالبقاء فيه ، جاحداً

أَكْذُوبَةُ الْجِزْيَةِ.....المهندس عدنان الرفاعي ١٥

الحقيقة ، ومتشرباً لبحوده هذا مع الزمن ، لدرجة بات يعتقد فيها أن عبادة أصنامها هي عين مراد الله تعالى ..

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل : ١٤]

.. وإذا قلنا لمتطري الطرفین إن أهل البيت والصحابة مجتمعین والروایات عند الطرفین مجتمعة ، لا تساوي حرفاً من كتاب الله تعالى ، وتعالوا إلى كتاب الله تعالى الذين تزعمون أنكم تؤمنون به إيماناً كاملاً ، هرب كل منهم إلى مستنقعه النتن ، وراح لا يرى دلالات كتاب الله تعالى إلا من مناظير مذهبه الضيقة ، وراح يؤول آيات كتاب الله تعالى تأويلاً ما أنزل الله تعالى به من سلطان ، ليبقى غارقاً في مستنقعه النتن ..

.. وعلى الرغم من هذا التيه الفكري والعقدي ، لو وجدت فطرة نقيّة ، وروح تردع

النفس عن هواها ، لاستوعب كل منهما الآخر ، وذلك من مبدأ ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾

[البقرة : ٢٥٦] ، ومن مبدأ ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ

إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ١٠٥]

، ومن مبدأ ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [

الكهف : ٢٩] ... ولكنّ المسألة - عند الطرفین - ليست مسألة اتباع لكتاب الله تعالى ،

إنّها مسألة عبادة أصنام التاريخ ، وبالتالي فالمعيار - عند الطرفین - هو الاقتراب والبعد من هذه الأصنام ، وليس الاقتراب والبعد من أحكام كتاب الله تعالى ..

.. الأخطر في هذه الحرب القدرة هو غرق الكثيرين من أبناء المجتمع في مستنقع

التضليل والكذب تحت تأثير تلبیس شیوخ الفتنة وتضليلهم ومتاجرتهم بالطوائف والمذاهب تحت شعارات برّاقة تخطف أبصار السذج .. وتُستغل في هذا الهدف القدر كل أدوات

أكذوبة الجزية.....المهندس عدنان الرفاعي ١٦

القدارة من فبركات وأكاذيب ، ومن اجتراعات نصيية من سياقاتها ، ومن تضخيم لحوادث فردية ، لتوظيفها في إغراق أبناء المجتمع في هذا المستنقع النتن ..

.. ويتنامى الحقد في نفوس المضللين بشكلٍ موازٍ للسخف الفكري والثقافي الذي وضعوا أنفسهم فيه ، وتسود الشحنة والبغضاء لدرجة يفجر فيها المضلل نفسه لقتل الآخرين حتى في دور العبادة أثناء أداء الصلاة التي يصلبها ذاتها من فجر نفسه .. وهذا ما رأيناه في الكثير من الجرائم المذهبية والطائفية ، التي وقعت في بلدانٍ على امتداد العالم ..

.. من يفجر نفسه في مسجدٍ مذهبٍ آخر أثناء الصلاة ، هل يؤمن بحقيقة صلواته هو لله تعالى ، والتي لا تختلف كثيراً عن صلاة من قتلهم بهذا التفجير !!!؟ .. من يفجر نفسه

في حضانة أطفالٍ مذهبٍ آخر هل آمن ولو لحظة بقوله تعالى ﴿ **مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ**

أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ

جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] !!!؟ ..

من يفجر سيارةً مُفَخَّخَةً في سوقٍ حضار ، أو في محطة قطار ، أو في أيِّ مكانٍ يُوجد فيه إنسانٌ بريء ، هل لامس ومضة نور من الحكمة المحمولة بقوله تعالى الذي يصف به

قول أحد ابني آدم : ﴿ **لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ**

إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة : ٢٨] !!!؟ ..

.. مشكلة هؤلاء التكفيريين أن الإنسان عندهم ليس بريئاً ولا يستحق الحياة إلا لمن كان على شاكلتهم ، فكلُّ ما هو ليس ظلامياً هو عندهم كافر .. ومعيار الحق عندهم والاقتراب منه والابتعاد عنه ، هو الاقتراب من أصنامهم التاريخية ، والابتعاد عن تلك الأصنام ..

.. عندما تُصبح العصبية المذهبية في النفوس المظلمة أكبر من الدين الحق ، يملأ صنمُ التاريخ مساحةً في تلك النفوس المظلمة والقلوب المريضة أكبر من المساحة المتعلقة بالله

تعالى ، ويتمُّ الإعراض عن الأدلّة والبراهين التي تُبيِّن فساد تلك القلوب المريضة ، ولا يتمُّ النطق بالحقّ مهما كان جلياً .. وكلُّ ذلك ناتجٌ عن كون هؤلاء لا يعرفون الله تعالى ،

لأنَّ الحقَّ اسمٌ من أسماء الله تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ

مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج : ٦٢] ، فمن لا يعرف

الحقَّ ، لا يعرف الله تعالى ..

المهندس
عدنان
الرفاعي